

تعلمت من سيدتي عليه السلام

تلخيص المحاضرة الأولى



سر قصة يوسف عليه السلام

سورة يوسف عليه السلام: سلوى كل محزون
تُعدُّ سورة يوسف من أعظم سور القرآن الكريم، إذ تحمل في طياتها دروسًا في الصبر
والتمكين، وتسكن القلوب الحزينة بالطمأنينة.

هي سورة مكية بلا خلاف، نزلت في أشد الفترات التي مر بها النبي ﷺ خلال العهد
المكي، بين عام الحزن وبيعة العقبة الأولى، حين اشتدت الابتلاءات عليه بفقد أحب
الناس إليه، خديجة وأبي طالب، وبعد معاناة طويلة في شعب أبي طالب، حيث تولى
عنه قومه وأقاربه.

وكانما جاءت السورة تواسي النبي ﷺ، لتقول له: "إن كان قومك قد هاجروك وآذوك،
فإن إخوة يوسف قد فعلوا به أشد من ذلك. لكن النهاية كانت التمكين والمغفرة،
وهكذا سيكون حالك."

لقد بشرت السورة النبي ﷺ بأن الابتلاء طريق إلى التمكين، كما كان الحال مع يوسف
عليه السلام، وأن من عادوه سيتوبون وينصلح حالهم، كما تاب إخوة يوسف بعد
سنين من الجفاء، وقد تحقق ذلك بعد فتح مكة.

أما عن سبب نزولها، فقد طلب الصحابة من النبي ﷺ أن يروي لهم قصصًا للعة
والتأمل، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، فجاءت سورة
يوسف تسليّة للنبي وصحابته، لما في القصة من تأثير عظيم على القلوب.
ولهذا سُميت "سورة يوسف" بـ "سلوى كل محزون"، فلا يمر إنسان بكرب أو ضيق إلا
وجد فيها السكينة، والإجابات على تساؤلاته الحائرة، بل ونورًا يضيء له دربه في
ظلمات الحياة.

الحروف المقطعة في بداية سورة يوسف: لغز وإعجاز
افتتحت سورة يوسف بالحروف المقطعة ﴿الر﴾، وهي من الأحرف التي وردت في
مطلع العديد من السور القرآنية. وقد تعددت الأقوال في تفسيرها، وأشهرها قولان:

(1) رأي ابن عباس رضي الله عنه
كان يرى أن كل حرف منها يرمز إلى كلمة؛ فـ "ألف لام راء" تعني "أنا الله أرى"، و
"ألف لام ميم" تعني "أنا الله أعلم"، معتبرًا أن هذه الحروف ترمز إلى أسماء من
أسماء الله تعالى.

(2) رأي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

يرى أن هذه الحروف لا تحمل معنى مستقلاً بذاتها، بل جاءت لحكمة عظيمة تتجلى في أمرين:

أولاً: لفت انتباه العرب

نزل القرآن على العرب، وهم أفصح الأمم وأعظمها شغفاً باللغة، وكانت البلاغة صنعتهم الأساسية. فإذا سمع أحدهم فجأة "ألف، لام، راء" دون سياق مألوف، سيجذبه الفضول لسماع المزيد. فالإنسان دائماً ينجذب إلى ما يتقنه ويفهمه، وكان العرب محترفين في اللغة، فكانت هذه الحروف وسيلة لإثارة انتباههم إلى ما سيليها من آيات.

ثانياً: التحدي والإعجاز

بعد أن التفت العرب إلى هذه الحروف، جاء التحدي: "هذا القرآن، الذي لا تستطيعون الإتيان بمثله، مكوّن من نفس الحروف التي تستخدمونها يومياً." وكأن الله سبحانه وتعالى يقول لهم: "هذه الألف، واللام، والراء، وغيرها من الحروف هي أدواتكم نفسها، فأتوا بمثل هذا القرآن إن استطعتم."

ورغم ذلك، وقفوا عاجزين عن محاكاته، حتى وهم أهل الفصاحة والبلاغة. لقد كانت هذه الحروف إعلاناً واضحاً بأن هذا الكتاب ليس من صنع بشر، بل هو وحي منزل من عند الله. ويتضح ذلك في اقترانها المتكرر بذكر القرآن في مواضع عديدة:

﴿الَمْ (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

﴿طَسَمَ (1) تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

﴿حَمَّ * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

وكانها رسالة خفية، تؤكد لكل من يستمع أن هذا القرآن كلام الله الذي لا يُعلى عليه، وأن عجز العرب عن الإتيان بمثله هو في حد ذاته أكبر دليل على صدقه وإعجازه.

تأملات في قوله

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

يقول الله تعالى في مطلع سورة يوسف: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾. واختيار كلمة "تلك" بدلاً من "هذه" يحمل دلالة عظيمة؛ ففي اللغة العربية، تشير "تلك" إلى الشيء البعيد، وكأن الله سبحانه وتعالى يرفع شأن القرآن إلى مقامٍ عالٍ لا يُطال، فهو "كتاب عزيز" لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثله، ولا يبلغون منزلته.

أما وصفه بـ "المبين"، فيؤكد أنه كتاب واضح في معانيه وأحكامه، لا غموض فيه ولا ألغاز، فهو يبين العقائد، والأخلاق، والعبادات، والمعاملات، ويكشف حقائق الآخرة وما بعد الموت بوضوح جلي.

وقد استدل أهل السنة والجماعة بوصف "المبين" على أن الأصل في ألفاظ القرآن أن تُؤخذ على ظاهرها، وخاصة في باب أسماء الله وصفاته. فلو كانت الألفاظ تحمل معاني خفية دائماً، لما كان القرآن مبيناً.

فحين يقول الله عن نفسه "يد" أو "وجه" أو "يأتي"، فالأصل أن تفهم هذه الألفاظ كما هي، دون أن نؤولها بلا دليل، لأن العرب حين يسمعونها يفهمون معناها مباشرة دون الحاجة إلى تفسير غامض.

فالقرآن كتاب هداية وبيان، وليس لغزاً يحتاج إلى فك رموزه، بل هو كلام الله الواضح الجلي، يفهم ببسر لمن تأمله بقلب سليم وعقل متدبر.

تأملات في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾
أولاً: التعبير بلفظ الجمع "إننا" بدلاً من "أنا"

يستخدم الله سبحانه وتعالى أحياناً ضمير المفرد، وأحياناً ضمير الجمع عند الحديث عن نفسه، وهذا الاختلاف ليس فيه تعارض، بل يحمل دلالات عظيمة:

عند الحديث عن التوحيد، يُستخدم ضمير المفرد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾، وهذا تأكيد على وحدانية الله.

أما عند الحديث عن العظمة والقدرة والكمال، يُستخدم ضمير الجمع، كما في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وهذا أسلوب في اللغة العربية للتعظيم، مثلما يُستخدم في بعض الخطابات الرسمية: "قررنا نحن" بدلاً من "قررث".

ثانياً: دلالة "أنزلناه" على علو الله سبحانه وتعالى

في قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، نجد دليلاً واضحاً على علو الله عز وجل، حيث إن الإنزال لا يكون إلا من الأعلى إلى الأسفل. وقد استدل أهل السنة والجماعة بهذه الآية وغيرها على أن الله سبحانه وتعالى مستوٍ على عرشه، بائنٌ من خلقه، فوق سماواته. ومن الأدلة على ذلك:

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ دليل واضح على استواء الله على عرشه.
﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾

إثبات للعلو، حيث تصعد الأعمال الصالحة إلى الله.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ التنزيل يدل على العلو.

"عروج الملائكة" - الملائكة تصعد إليه، مما يدل على أنه في العلو.

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ تصريح بعلو الله المطلق.

﴿ءَاْمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ دلالة على أن الله فوق خلقه.

إذن، هذه الآيات تؤكد فوقية الله سبحانه وتعالى، خلافاً لأهل البدع الذين ينكرون هذه الحقيقة.

ثالثاً: القرآن ودعوة العقل للتدبر والفهم

يخاطب الله تعالى العقول في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، مما يدل على أن القرآن قائم على الأدلة العقلية التي تخاطب الفطرة السليمة. فمن ذلك:

الأدلة العقلية على التوحيد:

{ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } مقارنة عقلية تثبت استحالة مساواة الخالق بالمخلوق.

الأدلة العقلية على البعث:

{ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِيَلْدَ مِمَّنْ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } قياس إحياء الأرض بعد موتها على البعث بعد الموت.

الأدلة العقلية على الرسالة:

{ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } استخدام السيرة الذاتية للنبي ﷺ دليلاً على صدقه.

لكن بعض الناس يخطئون في استخدام العقل، فيجعلونه حاكماً على النصوص الشرعية، فيرفضون بعض الأحكام إذا لم تعجبهم، أو يؤولون النصوص بلا دليل! وهذا إساءة لاستخدام العقل، لأن العقل وظيفته أن يقود الإنسان إلى الإيمان بأن الله على كل شيء قدير، وأن أحكامه كلها حكيمة، وليس أن يحكم على النصوص بعد ثبوتها.

رابعاً: { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ } لماذا قصص القرآن هي الأحسن؟
قصص القرآن تتميز عن غيرها من القصص بعدة أمور:

(1) الاختصار وعدم الاستطراد

القرآن لا يسهب في تفاصيل لا تفيد، بل يركز على المغزى والعبرة. فلو نظرنا إلى قصة فرعون، سنجد أن القرآن اختصر ذكر شروره في قوله:

{ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ }

هذه الآية تختصر جرائم فرعون التي لو سُردت بتفاصيلها، لاحتاجت إلى عشرات الصفحات! أما في القصص البشرية، فغالباً ما تُملأ الأحداث بتفاصيل زائدة تثير المشاعر ولا تخدم الحكمة من القصة.

(2) الصدق المطلق

قصص القرآن كلها حق لا ريب فيه، بخلاف قصص البشر التي قد تحتوي على الأكاذيب أو التحريف لأغراض درامية.

كثير من المسلسلات والأفلام تُحرّف الحقائق لأجل "الحبكة الدرامية"، بل حتى القصص المستمدة من وقائع حقيقية غالباً ما تُضاف إليها أحداث لم تقع أبداً. أما قصص القرآن، فهي صادقة من أول حرف إلى آخر حرف، بلا زيادة أو نقصان.

(3) التركيز على القيم والإصلاح

قصص القرآن تهدف إلى إصلاح القلب والسلوك، مثل:

{ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } التركيز على التقوى والصبر.

﴿وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ربط الدنيا بالآخرة.
﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾

ترسيخ الإيمان بأسماء الله وصفاته.

أما القصص الحديثة، فتركز غالبًا على الشهوات، والخيانة، والجرائم، والمشاكل الزوجية، والمخدرات، بدون هدف حقيقي سوى الإثارة.

4) تأثير القصص على النفس

قصص القرآن تقدم القدوة الصالحة دون تطبيع مع الشر.

أما المسلسلات والأفلام، فحتى عندما يُظهرون انتصار الخير، يكون الشر قد احتل معظم الأحداث! فتجد الناس يقلدون الشخصيات الشريرة أكثر من الصالحة، لأنهم تعايشوا معهم طوال الأحداث.

مثال: مسلسل "الأسطورة" حقق انتشارًا واسعًا، لكن الشباب لم يتأثروا بالنهاية التي انتصر فيها الخير، بل قلدوا أسلوب البطل في الكلام واللباس والتصرفات!

خامسًا: القرآن يوجه القلوب والعقول إلى الغاية الحقيقية

قصص القرآن ليست مجرد سرد للأحداث، بل كل قصة تنتهي بدرس إيماني أو حكمة عظيمة.

الله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، أي أن الغاية ليست المتعة المجردة، بل العبرة والتوجيه.

بخلاف القصص البشرية التي قد تُنهي القصة بدون هدف واضح، أو تجعل الشر يبدو جذابًا أكثر من الخير!

أي أن

القرآن كتاب معجز، واضح في ألفاظه، عال في مقامه.

يعظم الله نفسه بأسلوب أجمع عند الحديث عن القدرة والعظمة، وبالمفرد عند الحديث عن التوحيد.

دلت آية ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ على علو الله سبحانه وتعالى.

دعوة القرآن للعقل لا تعني تحكيمه على النصوص، بل التأمل في الأدلة التي تثبت الإيمان.

قصص القرآن هي أحسن القصص لأنها مختصرة، صادقة، هادفة، وتؤثر في القلوب دون تضخيم للشر.

فالقرآن ليس مجرد كلام، بل هو منهج حياة، ودستور رباني يهدي العقول والقلوب إلى الصراط المستقيم.

القرآن وأحسن القصص: الفرق بين منهج الله ومنهج البشر

في كل قصة يرويها القرآن، نلمس إعجازًا في السرد، حيث يجمع بين الإيجاز البليغ والمغزى العميق.

فحين يسرد لنا قصة الظلم والطغيان، يوجز الحديث عن الشر دون أن يغوص في تفاصيله التي قد تفسد الفطرة وتثير الشهوات، كما في قوله تعالى عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

بجملة واحدة اختصر الله أهوال الظلم، دون الغوص في مشاهد العنف والدمار، إذ ليست الغاية إثارة المشاعر السلبية، وإنما العبرة والاتعاظ. وفي المقابل، حين يأتي الحديث عن الخير، فإن القرآن يستفيض في تفاصيله، فيرسم صورًا مشرقة للنصر والتمكين، كما في قوله تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُفَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَمُّنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

فالقرآن يعطينا الأمل، ويركز على النتيجة النهائية للصراع، دون أن يغرقنا في مستنقع التفاصيل المظلمة، لأن الهدف هو تركية النفس وتطهير القلب، لا إغراق الإنسان في دوامة الشرور.

ونرى هذا المنهج جليًا في قصة يوسف عليه السلام، حين اختصر مشهد الفتنة في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.

لو كان الأمر فيلمًا أو مسلسلًا، لُقِّدَ المشهد في حلقات مطولة، بأدق التفاصيل، لإثارة المشاعر وتحقيق المشاهدات، لكن القرآن يعلمنا أن العبرة ليست في تفاصيل المعصية، بل في كيفية النجاة منها، ولهذا سرعان ما ينتقل إلى الحديث عن العفة والطهر.

وهنا يتجلى الفرق بين القصص القرآني والقصص الدنيوي؛ فقصص البشر تُبنى غالبًا على الإثارة، وغايتها تحقيق المشاهدات، فتغوص في مستنقع الشهوات والجرائم، حتى لو انتهت النهاية بانتصار الخير، فإنها طوال المسار تشبع النفس بكل تفاصيل الفساد، فتطبع القلوب عليها، دون أن يشعر الإنسان.

أما القصص القرآني، فغايتها إصلاح القلوب، وتعزيز الصلة بالله، والتذكير بالآخرة، ولهذا قال الله تعالى:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾.

فالقصاص القرآني ليس مجرد حكايات، بل دروس في العقيدة، والأخلاق، وحكمة التشريع، وهو نور يضيء الطريق للباحثين عن الهداية.

قصة يوسف: أحسن القصص في أحسن القصص

قصة يوسف عليه السلام ليست مجرد سرد تاريخي، بل هي نموذج فريد يجمع بين أسمى المعاني الإنسانية وأعمق الدروس الإيمانية، ولهذا استحققت أن تُوصف بأنها "أحسن القصص".

لقد تضمنت القصة جميع المتناقضات التي تمر بها النفس البشرية والحياة الإنسانية: الحسد والحب، الفراق واللقاء، الذل والعز، الرق والملك، الخصب والجذب، الفقر والغنى، الحزن والفرح، الصبر والندم، العفو والبغض. إنها رحلة متكاملة من المحنة إلى المنحة، ومن الضيق إلى السعة، ومن الشتات إلى الاجتماع، حتى تتحقق الحكمة الإلهية في أبهى صورها.

﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾

حين وصف الله نبيه ﷺ بأنه كان من الغافلين، لم يكن ذلك نقصاً أو عيباً، بل بياناً لحاله قبل الوحي. فقد كان على التوحيد والاستقامة، لكنه لم يكن يعلم تفاصيل الدين والعقيدة، كما قال تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ (الشورى: 52). فلم يكن يعرف تفاصيل الصلاة والصيام وأحكام الطهارة، لكنه كان بعيداً عن أفعال الجاهلية، لم يسجد لصنم، ولم يرتكب الفواحش. فالغفلة هنا تعني عدم العلم، لا الإعراض عن الحق.

بداية القصة: مباشرة إلى جوهر الحدث

تبدأ السورة بالدخول مباشرة في قلب القصة دون مقدمات طويلة، حيث يأتي المشهد الأول مشحوناً بالرؤيا العظيمة التي ستحدد مسار الأحداث:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ﴾

رؤيا تحمل البشارة والمحن في آن واحد، تلخص مسيرة يوسف من الابتلاء إلى التمكين، وتكشف عن عظمة التدبير الإلهي الذي يحول المحن إلى منح، ويجعل الصبر مفتاح الفرج.

هكذا تتجلى روعة القصة، ليس فقط في أحداثها، بل في عمق معانيها، وتوازنها العجيب بين الاختبار والتكريم، وبين البلاء والجزاء، مما يجعلها بحق أحسن القصص التي تتغلغل في القلب، وتهدي العقل، وتربي الروح على الثقة بالله وحسن الظن به.

المشهد الأول: حجر الأساس في تربية يوسف عليه السلام

تبدأ قصة يوسف عليه السلام بمشهد واحد، لكنه يحمل في طياته أسس التربية السليمة، والعلاقة المثالية بين الأب والابن.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ...﴾

كان أول من لجأ إليه يوسف ليقص عليه رؤياه هو والده، يعقوب عليه السلام، وهذه دلالة عظيمة على قوة الرابطة بينهما. لم يختار يوسف صديقاً أو أخاً ليشاركه هذا المنام، بل توجه فوراً إلى أبيه، لأنه وجد فيه الملاذ الآمن، والأذن المصغية، والقلب الحاني.

وهنا تتجلى عظمة يعقوب كأب، فقد كان قريباً من أبنائه، ليس فقط كولي أمر، بل كصديق ومُرشدٍ حنون. لم يكن يعقوب ذلك الأب المشغول الذي لا يجد وقتاً لأولاده، أو ذاك الذي يسخر من حديثهم، أو يتعامل معهم بجفاء.

بل كان نموذجًا للأب الذي يحتضن أبناءه بعاطفته واهتمامه.
جلسة خاصة... سر التربية الناجحة

الملفت للنظر أن هذا الحديث كان بين يوسف وأبيه فقط، فلم يكن هناك أحد يسمعه، مما يعني أن يعقوب عليه السلام كان يمنح كل ابن من أبنائه وقته الخاص. رغم كثرة أولاده، لم يكتفِ بلقائهم في المجالس العامة، بل كان لديه سعة القلب والوقت ليجلس مع كل واحدٍ منهم على حدة، يسمع منه، يناقشه، ويوجهه بحكمة. افتقادنا للحوار الأسري

هذا المشهد يسلط الضوء على أمر نفتقده اليوم في بيوتنا: "الجلسة الخاصة بين الأب وأبنائه، وبين الأم وبناتها".

كثير من الآباء يظنون أنهم يقومون بدورهم على أكمل وجه لمجرد توفير الحياة الكريمة لأبنائهم، لكن الأبوة الحقيقية ليست مجرد تأمين المأكل والمشرب، بل في القدرة على بناء جسور التواصل معهم، والاستماع إلى تفاصيل يومهم، ومشاركتهم مشاعرهم وأفكارهم.

الأم المثالية ليست فقط من تعتني ببيتها، بل من تأخذ ابنتها إلى جلسة خاصة، تسألها عن يومها، عن صداقاتها، عن مخاوفها وأحلامها، ثم ترشدها بحب ولطف. والأب المثالي هو من يجلس مع ابنه، يصغي إليه، يستفسر عن تجاربه، يوجهه دون قسوة، ويمدحه حين يُحسن التصرف، حتى يصبح الابن واثقًا أن والده هو أول من يلجأ إليه عند الحاجة.

هذا هو الدرس العظيم من المشهد الأول في قصة يوسف: التربية تبدأ من القرب، والحوار، والاحتواء، قبل الأوامر والتوجيهات.

المجلس الخاص... سر التربية الناجحة

في التربية، هناك فرق كبير بين الجلسة العامة والمجلس الخاص. فالتربية الحقيقية لا تُبنى في التجمعات العائلية فقط، بل في تلك اللحظات التي يجلس فيها الأب مع ابنه، أو الأم مع ابنتها، على انفراد، في حديثٍ وديٍّ بعيد عن الأوامر والتوجيهات الصارمة. هذا ما جسده الأنبياء في تربيتهن:

- إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل في لحظةٍ من أصعب اللحظات، يخبره برؤياه العظيمة:

{يٰٓيُنٰى اِنِّىۤ اَرٰى فِى الْمَنَامِ اَنِّىۤ اَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرٰى}

فيرد الابن بكل رضا: {يٰۤاَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىۤ اِنْ شَاءَ اللّٰهُ مِنَ الصّٰبِرِيۤنَ }

- لقمان وابنه في جلسة مملوءة بالحكمة والتوجيه الأبوي اللطيف:

{يٰٓيُنٰى اِنَّهَا اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ حَرْدَلٍ ... }

{يٰٓيُنٰى اَقِمِ الصَّلٰوةَ وَاْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَاَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ... }

ما يجمع بين هذه المشاهد ليس فقط الحوار، بل الأسلوب الراقي في المخاطبة. فالابن ينادي والده بـ "يا أبت"، فيرد الأب عليه بـ "يا بني". نداء مفعم بالحب والحنان، يعكس العلاقة القوية والاحترام المتبادل بينهما.

التربية بالاحترام... قبل الأوامر

كيف نطلب من أبنائنا أن يحترمونا، ونحن لا نخاطبهم إلا بعبارات التحقير؟

كيف نغرس الأدب فيهم، ونحن أول من يهينهم عند أقل خطأ؟

الابن مرآة أبيه، والابنة انعكاس لوالدتها. فالأم التي تمارس الغيبة، وتعامل زوجها بجفاء، كيف تتوقع أن تكون ابنتها مختلفة؟ والأب الذي يصرخ في وجه ابنه، كيف ينتظر منه الطاعة والمحبة؟

الطفل صفحة بيضاء، يكتسب أخلاقه مما يراه ويسمعه. إن نشأ في بيت مليء بالاحترام، سيتعجب عندما يرى غير ذلك خارجه. وإن نشأ في بيئة تسودها الإهانات والشتائم، سيظن أن هذا هو الطبيعي.

الاحتواء قبل التوجيه

حين قص يوسف عليه السلام رؤياه على أبيه، لم يقابله يعقوب عليه السلام بالسخرية أو الاستخفاف، بل استمع إليه بحب، وقدر مشاعره. تخيل لو كان أبًا آخر مكانه، ربما كان سيقول: "كواكب وشموس إيه؟! خلاص بقى مش ناقصك!"

هكذا، دون أن ندري، نكسر أبنائنا. عندما يأتي الابن متحمسًا ليشارك حلمًا أو طموحًا، فيقابل بالسخرية، لن يكررها مرة أخرى. سيغلق قلبه، ولن يعود يخبر والديه بشيء. وحين يكبر، لن يعرفوا أين يذهب، أو ماذا يفعل، لأنه تعلم منذ الصغر أنهم ليسوا ملاذًا آمنًا له.

كيف نصلح علاقتنا بأبنائنا؟

استمع إليهم بجدية، حتى لو كان حديثهم بسيطًا في نظرك. ربما تبدو مشكلتهم صغيرة بالنسبة لك، لكنها عظيمة في أعينهم. لا تقلل من مشاعرهم. امنحهم الوقت. لا تجعل انشغالك حجة، فجلسة خاصة مع ابنك قد تكون أهم استثمار تقوم به.

أنزل إلى مستواهم. خاطبهم بقدر فهمهم، وشاركهم مشاعرهم، واحتويهم بلغة الحب. أى إذا أردت أن تسمع من ابنك "يا أبت"، فاجعل أول كلماتك له "يا بني". وإذا أردت أن يثق بك، فكن له ملاذًا. وإذا أردت أن يحترمك، فابدأ باحترامه أولاً.

التربية ليست بالأوامر... بل بالحب!

فن التربية والاحتواء في قصة يوسف عليه السلام

يتحدث يوسف عليه السلام إلى والده يعقوب عليه السلام بكل طمأنينة عن رؤياه العجيبة: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

لم يكن هذا مجرد حلم عابر، بل كانت رؤية تحمل دلالات عظيمة، أدركها يعقوب عليه السلام فورًا.

فقد فهم أن الكواكب ترمز إلى إخوة يوسف، والشمس والقمر إلى والديه، والسجود هنا ليس عبادة، بل تكريمًا، كما كان الحال في الشرائع السابقة.

التفسير الرمزي للشمس والقمر

اختلف العلماء في تحديد من تمثل الشمس ومن يمثل القمر، لكن هناك دلالات واضحة ترجح أن الأب هو الشمس، والأم هي القمر. فالشمس تجمع بين النور والحرارة، تمامًا كما يجمع الأب بين التوجيه والحزم. بينما القمر يعكس نور الشمس دون حرارة، كما تعكس الأم حب الأب وحنانه على الأبناء، وتضفي لمسة من الحنان والرحمة في الأسرة.

الحكمة في التربية: لا تقصص رؤياك

أول درس في هذه القصة هو الحذر من الحسد والمكر. فقد أوصى يعقوب عليه السلام ابنه يوسف قائلاً: ﴿يٰٓيُوسُفُ لَا تُخَصِّصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

هذا يدل على معرفة يعقوب العميقة بشخصيات أبنائه، فلم يكن غافلاً عن غيرتهم، لكنه في الوقت ذاته لم يحرمهم من رعايته واهتمامه.

أنواع الرؤى وكيفية التعامل معها

قسم النبي ﷺ الرؤى إلى ثلاثة أنواع:

(1) رؤيا حق من الله: تكون واضحة وتحمل دلالات قوية، فإذا كانت خيرًا، نخبر بها من نحب، وإن كانت شرًا، لا نحدث بها أحدًا، ونستعيذ بالله منها.

(2) رؤيا من الشيطان: تكون مضطربة ومزعجة، ولا تفسير لها سوى أنها محاولات لإدخال الخوف في النفس.

(3) حديث النفس: حيث يحلم الإنسان بما يشغل تفكيره في حياته اليومية.

الدرس الأهم: الحذر من نشر النعم

يعلمنا يعقوب عليه السلام درسًا عظيمًا في عدم استعراض النعم أمام من قد يحسدنا، فقد تكون النفوس غير سليمة.

وفي زمننا هذا، أصبح من الشائع مشاركة كل لحظات الفرح والنجاح على وسائل التواصل الاجتماعي، دون التفكير في تأثيرها. لكن الحكمة تقول: أخبر بنعمك من تثق بحبه لك، ولا تعلنها أمام الجميع.

الاحتواء أساس التربية

من خلال هذا المشهد، نتعلم أن التربية لا تعتمد على الأوامر الجافة، بل على الاحتواء والاستماع. فالابن الذي يجد الأمان في الحديث مع والديه، سيظل قريبًا منهم، بينما من يُقابل بالسخرية أو التوبيخ، سيفقد الثقة ولن يشاركهم همومه أو طموحاته.

إن الأبناء مرآة والديهم، فاحرص على أن تعكس لهم صورة الاحترام والاحتواء، ليبادلوك الحب والطاعة عن اقتناع، وليس عن خوف.

في هذا المشهد التربوي البديع، نجد يعقوب -عليه السلام- يؤسس في قلب ابنه يوسف -عليه السلام- أعمدة الثبات والوعي، فيعلمه أن العداوة الحقيقية ليست بينه وبين إخوته، بل بينه وبين الشيطان، فهو العدو الأزلي الذي يسعى لإفساد النفوس وإيقاع العداوة بين الإخوة. بهذه الرؤية العميقة، حفظ يوسف قلبه من الحقد، مما سهّل عليه لاحقاً مسامحة إخوته حين قال: **{ قَالَ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ }**. ثم ينتقل يعقوب -عليه السلام- إلى ترسيخ حب الله في قلب يوسف، وذلك من خلال طريقتين:

(1) ذكر نعم الله المتعددة: حيث أخبره أن الله هو من سيجتبيه ويصطفيه، وهو من سيعلمه تأويل الأحاديث، موضحاً له أن كل خير يناله هو من الله، وليس من البشر.

(2) ذكر صفات الله الذاتية: مثل كونه عليماً وحكيماً، فكل صفات الجلال والكمال تستوجب المحبة والتعظيم.

وهكذا، غرس يعقوب -عليه السلام- في يوسف حب الله والخضوع له، مما جعله ثابتاً على الحق مهما واجه من فتن. فحين تعرض لمحنة امرأة العزيز، قال بملء اليقين: **{ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ }**.

وهنا تكمن روعة التربية، أن يربط الأب أبناءه بالله، لا بذاته، فينشأ الابن طائعاً لربه في كل حال، سواء في حضور والده أو غيابه، ثابتاً على الحق في العلن والخلوات، مدركاً أن النعمة من الله، وأن العدو الحقيقي هو الشيطان، وأن طريق النجاة هو في محبة الرحمن.

تربية الأنبياء: كيف صُنِعَ يوسف -عليه السلام-؟

إن التربية الحقيقية لا تُبنى على الخوف من البشر، بل على مخافة الله في السر والعلن، وهذا هو الدرس الأهم الذي غرسه يعقوب -عليه السلام- في ابنه يوسف. فكثير من الآباء يظنون أن أبناءهم ملائكة، لأنهم يرونهم أمامهم صالحين، لكن الحقيقة تظهر عندما يغيب الرقيب البشري، ويترك الابن ليواجه اختياراته وحده. والسبب في ذلك أننا نربي أبناءنا على احترامنا وخوفهم منا، وليس على مخافة الله، فتكون النتيجة أنهم يحسنون التصرف أمامنا، لكنهم قد يقعون في أخطاء جسيمة حين لا نكون حاضرين.

لقد بدأ يعقوب -عليه السلام- تربية يوسف بزرع الإيمان العميق بالله، فأكد له أن الله هو ربه الخاص، إذ قال: **{ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ }**، ولم يقل "ربنا"، مما يخلق علاقة شخصية بين يوسف وبين الله. ثم أوضح له أن الله ليس فقط سيختاره، بل سيعلمه **{ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ }**، ويكمل نعمته عليه. وهنا لفتة عظيمة؛ فالنعم درجات، وأعلى هذه الدرجات هي الاصطفاء النبوي.

ثم بيّن يعقوب -عليه السلام- أن هذه النعمة ليست مقصورة على يوسف وحده، بل تمتد إلى آل يعقوب جميعاً، تماماً كما أتمها الله على إبراهيم وإسحاق، مشيراً بذلك إلى

أن نعمة الصلاح تمتد عبر الأجيال، فصلاح الجد ينفع الأحفاد، وغنى الجد يعود خيره على الأبناء.

فلسفة الابتلاء والتمكين

يعقوب -عليه السلام- كان واعيًا بسنن الله في الكون، فعلم أن الاجتباء لا يأتي إلا بعد الابتلاء. لذا، عندما قال يوسف ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ كان يدرك تمامًا أن هذا الاصطفاء لن يكون سهلاً، بل سيمر عبر محن شديدة. فقد جاء في الأثر أن الإمام الشافعي سُئل: "أيهما أحب إليك، أن يُمكن الرجل أم يُبتلى؟"، فأجاب: "لا يُمكن حتى يُبتلى!".

وهنا تأتي الحكمة في اختيار الأسماء الإلهية في نهاية الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. فعندما يواجه يوسف المحن ويسأل: "لماذا يحدث لي كل هذا؟"، ستكون الإجابة ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. وعندما يصل إلى الملك ويتساءل: "لماذا اصطفاني الله من بين إخوتي؟"، ستكون الإجابة ذاتها.

هذه القاعدة الإيمانية نجدها في قصة نوح -عليه السلام- أيضًا، حين قال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾. فجاء الرد الإلهي: ﴿قَالَ يُنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. فكم من أمور في حياتنا نجهل حكمتها، لكن يكفي أن نوقن أن الله ﴿عليم حكيم﴾.

ثبات يوسف في المحن

لقد كان تأثير هذه التربية عظيمًا، إذ لم ينحرف يوسف -عليه السلام- مع الفتن والمحن، بل ظل ثابتًا في كل موقف واجهه، لأنه نشأ على عداوة الشيطان ومحبة الرحمن. عندما وُضع في السجن ظلمًا، لم يشك من قضاء الله، بل كان يبتث الإيمان في قلوب المساجين قائلاً: ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾. عندما راودته امرأة العزيز، قاوم شهوة الرجال بقوة حب الله، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. عندما حُيِّر بين السجن والفاحشة، اختار السجن طوعًا ﴿وَقَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾.

ثم تأتي اللحظة الفاصلة بعد أربعين سنة، عندما تحقق تأويل رؤياه، فيقول: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾. لاحظ هنا أنه قال "ربي"، كما علمه يعقوب، ولم يقل "ربك". ثم لم ينسب دخول السجن إلى الله، بل قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾. فلم يقل "إذ أدخلني السجن"، لأن المؤمن الحق لا يرى في الله إلا الجمال والرحمة.

وأخيرًا، عندما التقى بإخوته، لم يذكر انتقامًا، بل قال: ﴿مَنْ بَعْدَ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. وهنا نرى بصمة يعقوب واضحة، إذ ختم كلامه بنفس الأسماء الإلهية التي زرعها والده في قلبه منذ الطفولة: ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

خلاصة التربية النبوية

لقد كانت تربية يعقوب ليوسف تربية إيمانية متكاملة، قائمة على أصليين ثابتين:

- 1) عداوة الشيطان، حتى لا يُخطئ الإنسان في تحديد عدوه الحقيقي.
 - 2) محبة الرحمن، حتى يجد العبد في قلبه حصنًا يحميه من كل فتنة.
- هذه التربية لم تكن مجرد كلمات عابرة، بل كانت أساسًا متينًا ظل يوسف -عليه السلام- يبني عليه طوال حياته، فثبت عند المحن، وصبر عند البلاء، ولم يتغير حين جاءه التمكين.

وهكذا، صنع يعقوب نبيًا ثابتًا أمام الابتلاءات، راسخًا أمام الفتن، واثقًا في قضاء الله وحكمته.

فلنتعلم من هذه القصة كيف نربي أبناءنا، لا على مراقبة البشر، ولكن على محبة الله ومراقبته في السر والعلن.